مواقف من حياة الشيخ علي الطنطاوي

بقلم: أحمد فؤاد حسن
مصر

أحد الرجال الأفذاذ الذين عاشوا حياتهم، ونذروا أنفسهم ومواهبهم وملكاتهم لله تعالى، ولنصرة دينه، والنهوض بأمته، وهو من الذين آثروا أن يعملوا في صمت، ويبنوا في هدوء ويشاركوا في صنع التاريخ بعيدا عن الصخب الذي يصك الأسماع، والبريق الذي يخطف الأبصار ونصب أعينهم قول الله تعالى:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لاشريك له﴾

إنه علي الطنطاوي أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء! كما أطلق عليه د. يوسف القرضاوي.

نشأ الشيخ علي الطنطاوي في أسرة علمية فحفظ عشرات بل مئات القصائد من الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والأموي باعتباره الحجة في اللغة كما حفظ من الشعر العباسي أيضاً. وقرأ الكثير من الكتب الأدبية والتاريخ وعلوم الدين والثقافة العامة، وتعلم في مدرسة الحياة وكتاب الواقع، ومن خلال معايشته ورحلاته إلى مصر والعراق وإستانبول وأوروبا وآسيا وإفريقيا، وقد وُهِب بصيرة نيرة، وحساً نقدياً عالياً، تجلى ذلك في نقده الأدبي، ونقده الديني، ونقده الاجتماعي.

إن المتتبع لحياة الشيخ الطنطاوي يجدها حياة غنية بالمواقف والنشاطات فمن ذلك:

مشاركته في القضايا الوطنية

شارك الشيخ - وهو طالب - في مقاومة الاحتلال الفرنسي لسوريا، وكان يحرض الطلاب ويحرك الجماهير، ويسيّر المظاهرات ويلهب الحماس بخطبه النارية، وبيانه الساحر وأصابه نتيجة ذلك ما أصابه، فاعتقل وأودع في السجن.

أيد الشيخ الوحدة الاندماجية مع مصر مثل كل السوريين، وعلى رأسهم رئيس الجمهورية شكري القوتلي، الذي تنازل عن رئاسته، ليصبح المواطن العربي الأول في الجمهورية العربية المتحدة، ولكن حينما أصبحت الوحدة في عهد عبد الناصر خطراً على الحريات وعلى الحقوق الإنسانية وقف - مثل جمهور السوريين - مع الانفصال، وأيده بقوة، وخطب خطبة تاريخية مشهورة، كان لها صداها الواسع، وتأثيرها البالغ على جماهير الناس، ومن بعدُ ضياع أول وحدة عربية حقيقية.

الطنطاوي في مواجهة القومية والاشتراكية دفاعاً عن الإسلام

الشيخ الطنطاوي جند طوال عمره قلمه ولسانه للذود عن حياض الإسلام، وحراسة قلاعه من المغيرين عليه سواء من أعدائه الصرحاء المكشوفين من الصهاينة والصليبيين، والشيوعيين، وأمثالهم، أم من المقنعين الذين يلبسون لبوس المسلمين، ويتسمون بأسماء المسلمين، وليسوا على هدي من هذا الدين، وهؤلاء هم الأشد خطراً.

يقول الطنطاوي: كان عندنا في الشام - ونحن صغار - مدرسون من فلسطين وتونس وفلسطين والمغرب، ومدرسون من الترك والأكراد، سردت أسماء بعضهم فيما مضى من هذه الذكريات، فما كنا نسأل، ولا نفكر أن نسأل عن أجناسهم ولا عن أقوامهم ولا عن مواطنهم، كانوا مسلمين ويكفينا أنهم كانوا مسلمين. فنشأتْ ونحن صغار فتنةُ القوميات، فقال الترك: ترك،

وقال العرب: عرب، وقال الأكراد: أكراد، فتفرق شمل الجميع، وتعددت الأمة الواحدة فصارت أمماً.

كانت فتنة القومية، وتعبنا في جدال هؤلاء القوميين، نتبع في ذلك الأمير شكيبا وإخوانه «شكيب أرسلان» ويتبعنا من جاء بعدنا، كتبتُ في ذلك عشرات من الصفحات، وألقيتُ في ذلك عشرات «عشرات حقاً» من الخطب والمحاضرات لنبين للناس أننا لا نعادي العربية، وإنما ندافع عن الإسلام، وأننا نعرف للعروبة قدرها، ولكن تحت راية الإسلام.

اللغة العربية لسان الإسلام

يعد الشيخ الطنطاوي اللغة العربية هي لسان الإسلام، فيعتز بها باعتبارها جزءا من الاعتزاز بالدين وبالذاتية الثقافية والهوية الحضارية للأمة، ويرفض الطنطاوي استخدام الكلمات الدخيلة المنقولة من اللغات الأجنبية، إلا بعد تعريبها أو إيجاد البديل لها، مثل كلمة «الرائي» بدل كلمة «التليفزيون» وكلمة «الراد» بدل الراديو، كما عرب كلمة «الكيلو» بالكيل وغيره.

ومن هنا دافع الشيخ عن الفصحى دفاعه عن الإسلام، ودافع عن الأدب الراقي، وقاوم الأدب السوقي، ودافع عن الشعر العمودي ذي الوزن والقافية.

يقول رحمه الله: «بدأت في أيامنا فتنة «الشعر المنثور» الذي سئل عنه الأستاذ المازني يوما، فقال: «على عادته في السخرية والتحكم»: بل هو النثر المشعور!» أو «ما هذا الكلام المصفوف صفاً الذي ينشر في الجرائد على أنه شعر، وعلى أن أصحابه شعراء، ما فيه من الشعر إلا أنه طبع على هيئة أبيات القصيدة، فهو شعر المسطرة، أما موسيقى الشعر، وجمال الشعر، وسمو الشعر، فما فيه من شيء.

ولقد قدم شيء من هذا الشعر إلى الأستاذ العقاد – وهو رئيس لجنة الشعر في المجلس الأعلى للفنون والآداب – فكتب: يُحَوَّل إلى لجنة النثر. أي أنه أراد أن يدخل دولة الشعر بجواز مزور، فرفضه ورده إلى موطنه».

ومما امتاز به الشيخ علي الطنطاوي أيضاً:

صراحته المتميزة

فهو يقول الحق كما يعتقده، ولا يخاف لومة لائم، ونقمة ظالم، وإن كان في الفترة الأخيرة من حياته المباركة أقل حدة مما كان عليه من قبل فللسنين حكمها، وللزمن «بصمته» على الإنسان.

فلذلك نقد كثيرين، وهاجم كثيرين، وهاجم قوماً، ثم عاد فمدحهم، كما فعل مع الشاعر الأديب السوري الأستاذ شفيق جبري، فقد هاجمه حين كان مديراً لديوان المعارف، وكان كما قيل: ما رأيت مثل الفرزدق: هجاني أميراً، ومدحني معزولاً!.

وذكر أنه خطّأ أحد طلابه مرة أمام زملائه وقسا عليه، فلما عاد إلى البيت، وراجع المسألة، عرف أن الطالب كان على صواب، وأنه هو المخطىء، وعندما رجع إلى طلابه في اليوم التالي أعلن أمامهم صراحة أن الطالب كان على حق، وأنه أخطأ في حقه مرتين: أنه خطأه وهو مصيب، وأنه قسا عليه، على غير ما يليق بالعلماء مع تلاميذهم.

ومن الطريف أن نجد صراحته في مواقف كثيرة مع نفسه منها: ما سجله في مذكراته في مناجاة أو محاسبة لنفسه، فقد كان الشيخ يكتب مقالاته بأجر، وهذا معروف عنه، ويهمني أن أنقل هنا هذه المحاسبة الصريحة من الشيخ حول هذه القضية، يقول رحمه الله في ذكرياته: «لقد أمضيت حقبة من عمري في حلبة النضال، أقاتل وحدي على ضعف يدي وقلة عزمي، حاربت على جبهتين، جبهة الجهلة الجامدين، الذين يحرفون الدين ويغشون المسلمين، وجبهة الفاسدين المفسدين.

وما حدت بحمد الله عن هذا الطريق، وما كتبت بقلمي متعمداً ما لا يرضى ربي، وإن كنت لا أبرىء نفسي من الخطأ.

وأنا أكتب في الستين سنة كاملة، وآخذ على ما أكتبه أجراً لأنني كاتب محترف، كتبت آلافاً وآلافاً من المقالات، وأنا أحاسب نفسي الآن، وطالما حاسبتها قبل الآن، فأتساءل: هل هذه الأجرة من الناس تذهب ما آمل من الثواب عند الله؟ وأخشى أن أكون قد قضيت لنفسي، وأنا أعرض قضائي على القراء لأسمع ما لهم فيه من آراء.

وأنا أولاً أسأل نفسي فأقول: يا نفس هل كنت تكتبين ما يخالف الدين، ولو أعطيت على كتابتي الملايين؟ فأجد الجواب اليقيني الصادق، أن: لا.

وأسألها إن لم يكن في الساحة من ينكر المنكر غيرك يا نفس، وكان الإنكار واجباً شرعاً، هل كنت تمتنعين عن إنكاره، لأنك لم تعط أجره من قبل؟ والجواب هو أني ما بدلت بحمد الله، ولا غيرت، وما قلت يوما كلمة الباطل وأنا أعرف بطلانه.

إن أول كتاب صغير نشر لي سنة ١٣٤٨هـ هجرية – ما قلته فيه هو الذي قلته في آخر كتاب أعيد طبعه لي سنة ١٤٠٦هجرية، وإن تبدل في شيء فهو الأسلوب كنت فتى فيه شدة وفيه حدة، فألانتني الأيام قليلاً، وهدأت حدتي، وإن كانت لم تستطع أن تمحوها من نفسي.

والشيخ لا يترك أخلاقه

حتى يوارى في ثرى أمسه

وذو الشوق القديم وإنْ تعزى

مشوق حين يلقى العاشقينا ■